الفصل الثالث عشر

الأخلاق

لأخلاق موضوع عاطفى يسبب كثيرا من الخلاف ، حتى أن المدارس لا تقوم بتدريسها عادة ، أو حتى مناقشتها . وأعتقد أنه يمكن أن تدرس فى المدارس قيم أخلاقية معينة إذا اقتصر التدريس على المبادىء التى يدور حولها خلاف جوهرى فى مجتمعنا ، فالمبادىء الأخلاقية المسلم بها عامة ، والملائمة للنقاش فى المدارس هى الأفضل لنا ولأطفالنا على السواء ، لكى نعيش بلا كذب وغش وابتزاز للمال بالتهديد ، وسرقة . وعلينا التزام نحو أطفالنا يجب أن نقدمه ، فى البيت وفى المدرسة على السواء ، أى البيئة التى يستطيعون فيها التعلم والتصرف وفقا لهذه المبادىء ، فنحن نخذل أطفالنا بقدر ما نخفق فى تقديم مثل هذه البيئة فى بيوتنا وفى المدرسة .

وكثيراً ما نحاول تعليم الأخلاق بوصايا واعظة أشبه بالنقد القاسى ، مقرونا بعبارة : « خير لك أن تفعل هذا ، أو تعاقب » . وقلما يكون لهذا الإجراء فعالية ، وأقترح هنا ما أعتقد أنه بديل ذو تأثير يفوق الوعظ والتهديد ، فباستخدام الفصل كمجموعة لحل مشكلة اجتماعية ، يمكن عرض تصرف أخلاقى من خلال مناقشة أمينة تهدف إلى إيجاد انسجام بين أفعالنا وأقوالنا .

إن اجتماع الفصل الذى استعرض كلا من الحاجة إلى تعليم الأخلاق وإمكان تطبيقه فى المدرسة قد حدث مع تلاميذ الصف السادس بمدرسة فى منطقة ميناء لوس انجلس ، حضرها ٢٥٠ شخصاً يتكونون من الثلاثين رئيسا فى فصلى ، وهيئة موظفى المدرسة ، ومدرسون من مدارس مجاورة ، وبعض أعضاء إدارة مدارس محلية ، ونحو نصف آباء الأطفال ، وبدأت

المناقشة بمشكلة مدرسية عامة ولكنها مركزة كلية على المشكلة الكبرى ، وهى الكذب ، فروعت الحاضرين وأنارت أفكارهم فى وقت معاً . وشكا الأطفال الذين كان يبدو عليهم ذكاء ونشاط غير عاديين ، من أن الرئيس منع اللعب الحر فى الملعب ، لوجود كثير من المناقشات والصياح والشجار ، وبعد أن حدد مناطق اللعب لتلاميذ الصف السادس انتهت معظم المشكلات ، وشكا تلاميذ الصف السادس من أن الرئيس كان يعاملهم كأطفال ، وأن المجموعة عوقبت لخطأ اقترفه عدد قليل ، وقالوا إنهم يريدون استعادة امتيازات ملعبهم القديم . وسألت تلاميذ الفصل عما إذا كانوا يستطيعون أثناء الاجتماع استنباط فكرة لعرضها على الرئيس لاسترداد الامتيازات ، وقال الرئيس الذى كان حاضرا ، أنه مستعد للموافقة على أية فكرة معقولة ، ولكن الفصل لم يقدم له شيئا حتى آنئذ . وكان أحد أسباب عجز الفصل عن تقديم مقترحات بناءة أنهم حتى وقت انعقاد هـــذا الاجتماع ، لم تتح لهم فرصة قط للاجتماع معا لمناقشة المشكلة (تخطط المدرسة لعقد اجتماعات منتظمة فى العام التالى) .

ولما كان تلاميذ الفصل لم يتعودوا على حل المشكلات ، فقد شكوا فى الجزء الأول من الاجتماع ، من أنهم قيدوا بعد مراعاة العدالة ، ووعدوا بأنهم لن يكسروا القواعد ألبتة إذا ما أعطوا فرصة أخرى . ولما كانوا لم يفهموا أن المتوقع منهم أن يفكروا ويخططوا ، فقد فضلوا أن يتملقوا ويعدوا . وبالرغم من تقديمهم اقتراحات عدة تتطلب تغيير تصرف الرئيس ، فانهم رفضوا بعناد فحص سلوكهم الخاص أو تحمل أية مسئولية عن ضياع امتيازاتهم . وأخيراً ، وبعد نقاش طويل كان يتعين على أن أشير مراراً وتكراراً إلى أنهم كانوا يتوسلون أو يعتذرون أكثر مما يخططون ، اقترحوا توقيع التماس يطلبون فيه إعادة امتيازاتهم ، ويقولون فيه أنهم سيطيعون جميعا قواعد الملعب ، وكان يبدو أن الفصل قد اقتنع بالفكرة . ولكى أختبر وعدهم ، سألتهم عما يفعلون إذا كسر القاعدة أحد الذين وقعوا الالتماس .

وظن تلاميذ الفصل أن سؤالى يعرض لمشكلة يتعذر التغلب عليها ، لأن الطفل الذى كسر القاعدة سوف لا يعترف بها مطلقا ، وهذا ينطبق على كل شخص تقريبا ، فسألت : « هل تقصدون أنه حتى بعد توقيعه التماسا يقول فيه أنه سيطيع القواعد ، سيكذب ويوقع كل الفصل فى حرج بدلا من اعترافه بكسر القـــاعدة ؟ » . وسلم الفصل بأنه سيكذب لأنهم كانوا يخشون العقاب ، فقلت : « هل تفضلون عقاب الفصل كله على قول الحقيقة ، أم تبقون على الفصل وتتحملون نتائج أفعالكم بأنفسكم » وبعد مناقشة طويلة انتهى التلاميذ إلى أن الكذب أيسر ، فقد كانوا قد تعودوا كثيرا على الكذب بحيث أصبح قول الصدق فى موقف كهذا أمرا غير عادى فى الواقع ، وقالوا أن الأمر سيكون فى الحقيقة مخالفاً جدا للمألوف حتى أن مجرد شكواهم لا تفيد . وإذن ، فالالتماس والتوقيعات والوعود والمشروع ستتلاشى جميعا ، إذ لا يستطيع أحد أن يقول الصدق تحت ضغط للمحافظة على امتيازات الفصل .

وعندئذ قلت لتلاميذ الفصل ، أن لديهم — كما اتضح لى — مشكلة أساسية أكثر من مجرد فقدان امتيازات الملعب ، وتتعلق المشكلة الأساسية ، بالصدق ، فهل يجب عليهم قول الصدق على وجه التخصيص ؟ واتفق التلاميذ بالإجماع على أن قول الصدق صواب وأخلاقى وعدل وخير ، ومع ذلك فانهم فى الممارسة العملية كانوا يفضلون الكذب ، بل إن إحدى الفتيات ، ذهبت فى قولها بكل صدق (لا أزال أستطيع أن أتذكر الاقتناع مرتسماً على وجهها حين نطقت بهذه العبارة) : « إننى لو قلت الصدق يا مستر جلاسر ، فان كل عالمى سينهار » . وإنه لمن الممتع حقا ، أنه بالرغم من قلة ثقتهم فى عالم الكبار ، لتوفير قيادة أخلاقية ، فقد قالوا إن ثقتهم كبيرة فى معلمتهم . « إنها لم تكذب علينا ألبتة » .

إننى لا ألمح ، ولا أعتقد أن المدارس تعلم الأطفال الكذب ، ومع ذلك ، يبدو لى أن المدارس يجب أن تهتم بأنها خلقت بيئة يتفق فيها الأطفال

على أنهم تحت الضغط أو التهديد بالعقاب ، يكذبون دائما تقريبا حتى على حساب بقية تلاميذ فصلهم . وللإجابة على الحجة القائلة بأن المشكلات الأخلاقية تتعلق مباشرة بالبيت أو الكنيسة ، أستطيع أن أقول وحسب ، إنني أعتقد أنه مهما كان تأثير البيت والكنيسة ، فحين توجد مشكلة أخلاقية فى المدرسة ، فان هذه الأخيرة يجب ألا تتحاشاها ، ويمكن اعتبار الأطفال دون مغالاة فى الخيال ، مخالفين للطابع المألوف للطفل الأمريكى العادى ، فهم أفراد من طراز « دك ، وجين Dick & Jane » المبتدئين فى القراءة ، بما لديهم من فرص ومزايا وبعـد عن المشكلات الاجتماعية الاقتصادية . المصاحبة للأطفال المدهشين الأذكياء الذين يعمرون الكتب المدرسية الأمريكية ومع ذلك فهم كاذبون . وكلما استمرت المناقشة ، قالوا إنهم إخصائيون كذلك فى الغش والسرقة والابتزاز بالتهديد . وهم يفترضون أن الكذب والغش والسرقة والابتزاز بالتهديد تشكل جزءاً طبيعيا من الحياة فى العالم الحقيقى ، وأن العالم محتاج إلى هذا النوع من السلوك ، من الفرد إذا أراد أن يعيش . وربما يكون الأطفال على حق ، ولكننى لا أظن ذلك ، ولست مستعداً للتسليم بعالم غير أخلاقى كلية ، وأعتقد أن الأطفال ليسوا بحاجة كذلك إلى قبول عالم غير أخلاقى . ومهما كان شكل العالم ، فلايزال لكل فرد حق اختيار سلوكه الشخصى .

وحين طلب إلى الأطفال إبداء رأيهم فيما إذا كان الكبار يكذبون أو لا يكذبون ، اتفقوا على أن الكبار كانوا يكذبون كثيرا ، وكذلك كانوا يسرقون ويغشون ، ولربما كانوا يسهبون فى الحديث إلى حد ما عن تجاربهم مع والديهم ، ولكن ، بسبب وجود عدد ضخم من الحاضرين ، شعرت أن التعقل مطلوب . فقطعت هذا المسلك بقولى : « فلنلتزم بمشكلة الفصل » وهذا اقتراح موفق للقائد ، يتبعه كلما كان فى شك من لياقة المناقشة ، إذ يجب أن يكون هناك توازن بين الأمانة الكاملة وبين ما تحتمله الجماعة ، فالأطفال يتحدثون بالفعل عن الكذب والغش والسرقة التى يرتكبها إخوتهم وأخواتهم .

إن الابتزاز بالتهديد كان شائعاً فى البيت ، فالطفل الذى اكتشف أن أخاه أو أخته يرتكب خطأ ما ، يستخلص لنفسه عملا أو هدايا أو مالا ، مهدداً بفضح عمله أمام والديه ، وكان كل الأطفال غير متأثرين بالخوف من ضبطهم وعقابهم فى كثير من الأحيان ، وكانوا ينظرون إلى العقاب نظرتهم إلى الحظ فى المباراة ، فلم يمنعهم العقاب من الكذب ، بل شجعهم على المخادعة وحسب ، وأكثر من هذا أن العقاب ، عندما ينفذ ، يكون هو الثمن الذى دفعوه مقابل أكاذيبهم ، فاذا ما دفع الثمن أصبحوا أحرارا فى الكذب مرة أخرى ، على أمل ألا يضبطوا فى المرة التالية .

كان كل شخص من الحاضرين غير مرتاح لإدراكه أن الأطفال إنما كانوا يعبرون عن تقييمهم اللاذع للعالم . ويفهم تلاميذ المدرسة الأولية فى وقت مبكر من حياتهم أننا نعيش فى عالمين ، عالم التظاهر ، حيث نسهب فى الحديث عن القيم الأخلاقية ، وعالم الحقيقة حيث نعير هذه القيم أقل اهتمام مستطاع . ولمعرفة الحاضرين معرفة تامة بهذين العالمين ، لم يدركوا ألبتة إدراكا ذكيا أن الأطفال أيضا عرفوا مدى زيف العالم ، ولعل بعض السبب فى هذا يرجع إلى تجنب الكبار السماح لأنفسهم بأن تتضارب أفعالهم كثيرا مع معتقداتهم التى يعلنونها ، فقد صدموا بادراك الأطفال ، وظن الكبار أنه لم يكن ينبغى أن يعرف الأطفال شيئا عن العالم الحقيقى بهذه السرعة . وفى المناقشة التى جرت بين الحاضرين عقب اجتماع الفصل ، عندما أصبح الكبار أكثر تسليما بمعرفة الأطفال للعالم الحقيقى ، اتفق معظم الحاضرين على أن المدارس يجب أن تبدأ بتعليم الأطفال وسائل الحياة التى يحتاجون فيها إلى أقل قدر من الكذب . وبالرغم من قولى أننى أظن أن اجتماعات الفصل تستطيع أن تلعب دورا كبيرا فى تعليم الأخلاق فى المدارس ، فقد كان واضحا فى نهاية هذا الاجتماع الوحيد ، أن حمل الأطفال على الامتناع عن الكذب سيكون عملا شاقاً .

ولكون الأطفال يعيشون فى عالم يضبطون فيه بصورة ثابتة ، ولكنهم يعاقبون حين يضبطون فى غير تناقض ، يقولون مراراً وتكراراً ، إنهم حين يرتكبون خطأ ما ، ويضبطون ، قلما يعطون الفرصة لحل المشكلة . وقليل من الآباء الذين يضبطون طفلا يرتكب عملا سيئا يمتنعون عن المناقشة بطريقة غير عادية ، فيقال للطفل دائما تقريبا فى فتور أنه مخطىء . ويعاقب ويحذر من العودة إلى ارتكابه مرة أخرى ، وكان الأطفال أيضاً واضحين فى اعتقادهم ، أننا مادمنا نعتمد على العقاب ، فاننا نبذر بذور الكذب والغش والسرقة والابتزاز بالتهديد .

وحين سألت الأطفال عما إذا كانوا سيقلعون عن الكذب ، إذا كان قول الصدق لا يترتب عليه عقاب ، قالوا إنهم سيقضون وقتاً طويلا لتطوير الثقة فى أى شخص تطويرا كافيا لتغيير نمطهم . ويظنون أنهم فى النهاية قد يتعلمون قول الصدق — فلا يكذبون — منذ الساعة التاسعة فى تلك الليلة حين ينتهى الاجتماع ، حتى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالى عندما تعقد المعلمة اجتماعاً آخر ، فهل يستطيعون الاعتماد على الصدق وحده لمدة سبع عشرة ساعة ؟ . وبعد التفكير فى ذلك بعناية قالوا بالإجماع تقريبا إن هذا لن يكون مستطاعاً ، وحاولوا حملى على فهم معرفة مدى الصعوبة فى الاعتماد على الصدق ، وأنهم لم يجدوا طرقاً لعمل ذلك . وعندئذ عدلت طلبى ، بأن طلبت إليهم أن يبحثوا فى اجتماع الفصل التالى ، المواقف التى شعروا فيها بالاضطرار إلى الكذب ، وأن يحاولوا البحث عن بدائل مستطاعة ، لأن مثل هذه المناقشة تجعل الأمور موضوعاً للمناقشة ، ووافقوا على ذلك .

هناك نتيجتان جليتان تكشف عنهما الاجتماع ، أولاهما أن الطلبة كانوا راغبين فى أن يتعلموا كيف يعيشون بحيث لا يكذبون طوال الوقت ، ولم يستطيعوا العثور على طريقة للهرب من العقاب عندما يقولون الصدق مع شعورهم بالضيق والاستياء من الكذب ، وثانيتهما أن التلاميذ كانوا مقتنعين

بأن معلماتهم لم يكذبن عليهم ألبتة ، ولو اعتقدوا أن معلماتهم قد كذبن عليهم ، فانني أشك فى إمكان حملنا إياهم ألبتة على الإقلاع عن الكذب ، ومع ذلك ، فلو تدبرنا ما قاله الأطفال ، فأظن أنه كان يمكن إنقاص الكذب بعقد اجتماعات فصل والقضاء على العقاب .

لقد كان كل واحد فى ذلك المساء مقتنعا بما رآه ، فقد أزعجتنا دنيا الكبار التى سببت لهؤلاء الصغار ضعف الثقة فى أن اتباع ما أعلناه من قيم أخلاقية يؤدى إلى الحياة الراضية . واتفق معظم الحاضرين على أن مسائل الأخلاق يجب أن تناقش فى المدارس ، وأن اجتماعات الفصل التى لا تقترن بعقاب قد تكون ذات تأثير فى مساعدة الأطفال على تحسين سلوكهم ، وبالرغم من أن الأطفال كانوا يتشككون بطبيعة الحال من أى شىء جديد ، فقد أظهروا استعداداً للقيام بالمحاولة ، فلو لم يرغبوا فى التغيير لما كانوا صرحاء وصادقين إلى هذا الحد ، وأخشى أن تختفى بسرعة هذه الصراحة وهذا الصدق ، ولو كنت قد وجهت أثناء مناقشتى مع جماعة المشاهدين أسئلة مشابهة إلى المدرسين والمديرين وجماعة القادة الحاضرين لقل احتمال المشاركة الصادقة الصريحة التى أظهرها تلاميذ الفصل السادس .

أعتقد أن الأخلاق يجب أن تناقش فى المدارس ، ويجب أن تكون المناقشات جزءا من البيئة الخالية من التهديد والعقاب . ومن الأهمية بمكان أن يحمل الأطفال أنفسهم على الصدق ، ومن الأهمية بالمثل أن يختبروا بتفصيل فى اجتماعات الفصل ، مشكلات حياتهم التى تجعلهم يكذبون ، وأن يحاولوا حل هذه المشكلات ويتعلموا تقييم الصدق ، وإذا كانوا لا يستطيعون شخصيا ممارسة تقييم الصدق ، فلن يكون للصدق مغزى عندهم ، وإذن ، فلا يكفى عقد اجتماعات لحل المشكلات الاجتماعية ، بل يجب خلق بيئة فى كل من البيت والمدرسة ، صريحة صادقة ، تحل المشكلة ، يمكن للأطفال أن يحيوا فيها حياة أخلاقية ، لا مجرد حياة شكلية ، لأن المدارس العاطلة من بيئة كهذه ، تظل فيها الأخلاق والمسئوليات مجرد كلمات فى نظر الأطفال .